الزعني: شاعر الشعب

الدكتور وجيه فانوس

عمر الزعني صديقي، وصديقي العزيز! وهذه الصداقة لا ترتبط بمصالح خاصة أو دوافع شخصية، ويشهد الله أن الزعني لم يعرفني ولم يرني، بل ولم أخطر بباله طول حياته. لقد توفاه الله يوم كنت ما أزال تلميذاً فرحاً بحصوله على الشهادة الابتدائية، ولم تكن لهذا التلميذ علاقة من قريب أو بعيد بأجواء الزعني. ومع هذا، فأنا مصر على أن عمر هو صديقي، وصديقي العزيز جداً: صديقي الذي لم يخذلني مرة، والذي ظلت شخصيته وأشعاره مفتاح سعادة وفرح وإلهام لي طوال سنوات بدأت ولمَّا تنته بعد. إنها صداقة بين واحد من أبناء الشعب وبين شاعر الشعب؛ فلا عجب في الأمر ولا غرابة، بل هو الحق كل الحق.

عمر الزعني هذا، لا يمكن أن أتخيله إلا وفي البال فكرة الالتزام: الالتزام بين ابن الشعب وشعبه، والإمعان الواعي في هذا الالتزام حتى النهاية وإلى أبعد الحدود! لقد اختار عمر الزعني أن يكون شاعر الشعب، فالقضية عنده أبعد من كونها لقباً أو صفة. إنها مهمّة وواجب كان يصر على القيام بها والوفاء بكل مستلزماتها. واقع الحال، أن أحداً لم يطلق عبارة «شاعر الشعب» على الزعني، بل هو الذي اختارها لنفسه دوراً ثقافياً واجتماعياً يقوم به وسط بيئة تشكو من نقص كبير في التواصل بين مختلف طبقاتها وفئاتها. ولعل تكريس هذا الاختيار يبدو جلياً في كلام الزعني نفسه في قصيدة «عرِّم يا فرنك» التي أذاعها سنة ١٩٣٦، وفيها يقول:

«أنا رافع راية أوطاني
أنا شاعر الشعب المتألم»

ومع الممارسة الصادقة، أضحى الدور جزءاً لا انفصام له عن صاحبه، وبات شاعر الشعب اسماً رديفاً لعمر الزعني.

أما اليوم، وبعد مرور ست وعشرين سنة وثلاثة أسابيع على وفاة الزعني، فما زال الناس يقولون عنه «شاعر الشعب»! ويالها من كلمة، ويالها من رتبة لاأذكر أن أحداً سوى الزعني قد وصل إليها. لقد ربط الناس في مسيرة الشعر العربي بعض الشعراء بالحاكم أو علية القوم! وقالوا شاعر الخليفة أو الأمير أو الوالي! وربط الناس، أيضاً، بين الشاعر وبين الجغرافيا، فإذا بَنا، على سبيل المثال، نسمع بشاعر النيل وشاعر القطرين. لكن، ومع عمر الزعني، فإن الربط كان بين الشاعر وبين الشعب. ولا أعلم أن تاريخ الأدب عندنا قد أثبت هذه الصفة/ الرتبة على أحد من قبل عمر، ولا أعتقد، ونحن اليوم في زحمة نضال خانقة، أنه جرؤ على إطلاقها على أحد بعد عمر. من خلال هذا الفعل، أثبت الشعب، وبواسطة عمر الزعني، أن له الحق، كل الحق، في أن يكون له شاعره الخاص، وصوته المدوي، ومنبره الأسمى، ولذا، أنا واحد من أبناء هذا الشعب، فإن عمر الزعني، هو صديقي، صديقي العزيز، والأوفى.

حكاية عمر الزعني مع الشعر والناس تروي تجربة مثقف

راقٍ أصرَّ على أن يندمج في كل قطاعات شعبه دون أن يفقد قُدُراته الريادية! ويالها من معادلة صعبة: أن تكون واحداً من الناس، كل الناس، مندمجاً في كبيرهم وصغيرهم، متمكناً من مخاطبة الساذج والمفكر في وقت واحد، وقادراً على المحافظة على ريادتك أمام كل هؤلاء دون أن تخون مبادىء ثقافتِك أو وعيكِ الوطني أو رؤيتك أو تعبيرك اللغوي أو، إن شئت، تركيبَتِكَ النوعية، أو أن تخسر، في نهاية المطاف، جماهيرك. إنها معادلة صعبة، صعبة، لا يحققها إلا شاعر شعب، ولذا، مابرح عمر وحده منذ سنة ١٩٢٢، ربما، وحتى اليوم، شاعر الشعب.

تبدأ الحكاية: أن الشاب الطموح الذي حاز سنة ١٩١٣ شهادة البكلوريا في العلوم والآداب، والضابط الإداري في الجيش العثماني إبان الحرب العالمية الأولى، وطالب الحقوق في الكلية اليسوعية، وأستاذ الأدب الفرنسي في الكلية العثمانية والمدرسة الأهلية، والشريك الثالث في مكتب محاماة مع عمر فاخوري وصلاح الدين اللبابيدي، تَلَبَّسَهُ هاجس الناس، ورأى أن كل المعارف التي حازها، وجميع الوظائف التي مارسها، والمهام التي قام بها، ويمكن أن يُعَبَّرَ عنها بشكل أفضل وأجدى بحمل هموم الناس، وهكذا كان: انصرف عمر إلى الناس، ترك التاريخ يبحث عنهم في رحاب قصائده وشخصيته. ولا أظن أن هذا الأمر كان في حياة عمر الزعني وليد المزاج الفردي والرغبة الذاتية وحسب، واقع الأمر أن الزعني، إضافة إلى مالديه من مزاج شخصي وموهبة فذة، كان ابناً لمؤسسة قدَّمت للوطن كباراً من الذين انصرفوا بكليتهم إلى تلبية هاجس الناس هذا، أو الانخراط في الشأن العام والنضال مع الجماهير، كما نقول في تعبيرنا المعاصر. فكان منهم الشهيد، وكان منهم الأديب، وكان منهم السياسي الفذ. أما المؤسسة فهي الكلية العثمانية الإسلامية لمؤسسها الشيخ أحمد عبَّاس، وأمَّا الكبار فمن أبرزهم عبد الغني العريسي، وعمر حمد ومحمد ومحمود المحمصاني وعمر فاخوري، ورياض الصلح وعبد الله اليافي، تركيبة تآلف فيها المزاج والهوى الشخصيان مع تربية وتنشئة صادقتين. وهكذا يحصل الوطن على قادته وعباقرته، وهكذا كان عمر الزعني. فالزعني إذن، التزم عن وعي، أو كما يقال، عن سابق تصور وتصميم، والالتزام عِنْدَهُ كان كلياً وشمولياً في شخصيته ونتاجه.

لوحاول المرء أن يبحث عن مضمون هذا الالتزام في شعر عمر، فلعله لن يتمكن من تحديد عقيدة سياسية ممنهجة للرجل، واقع الحال أن الزعني لم يكن مفكراً سياسياً، وهو أيضاً لم يهو الانتماء إلى الأحزاب السياسية. أمَّا تَجْرِبَتُهُ مع حزب اللامركزية، إبان دراسته في الكلية العثمانية، فيبدو أنها صغيرة، ولم تتوفر حتى الآن معلومات مفصلة عنها. لذا، يمكن القول إن عمر الزعني اكتفى، مثل كثير من الناس، ومن مثقفي عصره خاصة، بقناعات سياسية معينة شكلت نبراساً لتصرفه الوطني، وكانت تقوده في مجال التفاعل مع الأحداث. من هنا، يمكن للمرء أن يعتبر عمر الزعني مثقفاً ليبرالياً سعى جَهْدَهُ في كل إنتاجه لأن يكون مخلصاً لشعبه وبيئته من خلال أقصى مالديه من إمكانيات الفعل الفني. ولعله نظراً إلى عدم ارتباطه بأي تفكير سياسي مُنتمٍ إلى حزب معين، فإن أفضل ترجمة توصل إليها لاهتمامه بالجماهير كانت في سعيه الدائب لجعل صورة المعاناة اليومية لأبناء الشعب أكثر وضوحاً واقتراباً من الواقع المعاش. ولعل في تَجْرِبَة الزعني هذه نقلة هامة في الفعل الأدبي لذلك العهد، والانتقال بالكتابة الفنية من الرومنسية الحالمة أو الغارقة في الماضي إلى الواقعية الكاشفة الساعية لإنارة الحاضر والمضي المستمر على التفكير فيه. وقد يكون صحيحاً أن الزعني لم يصل دائماً إلى طرح رؤى سياسية معينة، لكن من خلال واقعيته الجريئة في تصوير الحاضر، كان يدفع بالناس وبقوة إلى التفكير في هذا الحاضر والبحث عن حلول لمشاكله. وهكذا لم يستطع الفكر السياسي المباشر أن يخترق قصائد الزعني ويحولها إلى نوع من البيانات الحزبية، بيد أن الفعل الحياتي تحول في أعمال عمر إلى معاناة إنسانية تنطلق من الخاص إلى العام، ومن الفردي الذاتي إلى الإنساني الشمولي وتظل صادقة حية موحية على مرّ السنين وتوالي الحقب.

إن محاولة هذه النقلة في الفعل الأدبي المعاصر قد تطلبت من عمر الزعني وعياً خاصاً ومميزاً لفهم دور الأدب والأديب، كما تطلبت منه جهداً واضحاً وجريئاً على مستوى التقنية الفنيَّة إن جاز التعبير. لقد عُرِفَ عمر الزعني من خلال قصائده التي كان يغنِّيها على المسارح ومن الإذاعات والاسطونات. وفي الحقيقة، لم يكن للزعني صوت رخم يضعه في مصاف المطربين، بيد أن الرجل اعتمد الأغنية وسيلة تصل من خلالها الكلمة إلى المعاصر، يقوم بها الشاعر بنفسه لا بواسطة مغنين يكون الإنشاد مهنتهم ولعل عمر كان يعتقد بأن الشاعر هو مغني الجماهير مما يُذَكِّرُ المرء بالأعشي

الذي يقال إنه كان يغنّي بشعره فسمي صنّاجة العرب، أمّا الأسلوب الفني الذي كان يُعَبّر عمر عن أدبه، فمن أبرز معالمه استعمال اللهجة العامية، وبالتحديد اللهجة البيروتية التي كانت بالنسبة لعمر «لغة الحياة اليومية»، إنها لهجة البيئة التي عاش فيها، وقد استعملها عمر في مختلف أساليبها ومستوياتها، من تعابير المحيط البيروتي القديم والمفرط في شعبيته إلى الأسلوب الراقي لهذه اللهجة أو ما يُعرف بلهجة المكتب أو الصالون. كما حاول أن يستعمل اللهجة الفصحى وكأنها لهجة عامية، أو هو حاول التوفيق بين العاميّة والفصحى، فاعتمد لذلك فصحى يخالها القارىء لأوّل وهلة عفوية لكنها وليدة القصيدة والصيغة والبلاغة: فهي تبتعد عن تقعُّر الفصحى وسوقيّة العامية في آن. والزعني اعتمد أيضاً الأمثال والحكم الشعبية أداة تعبير وتوصيل في أعماله الأدبية. وإذا كانت أعمال عمر الزعني الأدبية لم تتميز بكثير من الزخرفة اللفظية وأنواع البديع، فإنها امتازت باستعمال الرمز. والرمز عند الزعني يأتي موحياً بأبعاد كثيرة ومنطلقاً من واقع الحياة الشعبية في آن؛ لأن رموزه لم تكن بعيدة عن إدراك الإنسان العادي، وكانت تساعد بالتالي، على توصيل الفكرة التي يبغيها. ولعل عمر آمن، ههنا، أن الرمز في الشعر لا يكون ناجحاً إلا إذا كان تراثياً، شعبياً، قائماً في ضمير الأمة. ولم يكتف عمر بكل هذا، بل كان لحركاته على المسرح أثر في إعطاء الكلمات أبعاداً أكثر غنىً من الأبعاد التي تعطيها وهي مكتوبة على الورق. ولعل في استعراض سريع لبعض نماذج من كتابات الزعني ما يُظهِرُ شيئاً من تجربته على الصعيدين الفكري والأدبي.

مع بداية عشرينات هذا القرن، كان لبنان يمر بأحداث حاسمة تركت بصماتها واضحة على كيانه ومستقبله وتجربة وجوده. ففي تلك الحقْبَة من الزمن أُعطيت فرنسا الانتداب على البلد، وأقرَّت هذا الانتداب عصبة الأمم. وفي ذلك الزمان أيضاً كانت معركة ميسلون بين الوطنيين من أبناء البلاد وبين الجيش الفرنسي المنتدب. وفي تلك المرحلة كذلك، أعلنت دولة لبنان الكبير، زمن نضال وتحديد مصير؛ ومرحلة من تاريخ الوطن كانت تطلب من الجماهير كل وعي وإدراك ونضج في العمل السياسي والفكر الوطني. وفي تلك الأيام أيضاً صدف أنّ آنسة من مثقفات تلك المرحلة أصدرت كتاباً يتعلق بموضوع السفور والحجاب، الأمر الذي دفع كثيرين من رجال الدين والمفكرين إلى مناقشات عديدة وصولات وجولات حول هذا الموضوع، وكادت القضية تحوِّل انتباه أكثرية لا بأس بها وبأهميتها من رجال الفكر عن الواقع السياسي الذي كانت تعيشه البلاد. وهنا يبرز عمر الزعني في أول قصيدة، أو أغنية، أو موقف جماهيري له. في الحياة العامة، وفي قضايا الناس، هناك أمور هامة؛ بيد أن الزعني، رأى، عهد ذاك، أن أمراً واحداً هو الأهم: الموضوع الوطني، الحفاظ على الوطن والتمسّك به، ولم يبال الرجل بكل المحافظين أو المقررين في ذلك الوقت، لم يكن لا مع السفور ولا مناصراً للحجاب. رفض طرح القضية برمتها. الموضوع الأول والأخير الذي رآه أهلاً لأن يشغل الناس كان الهاجس الوطني والمحافظة على الأرض، وكانت الصرخة الموقف:

الدنيا قايمة	والشعب غافل
راحت بلادكم	ما حد سائل
الحق عليكم	ولا عَ مين!
شوفوا البلايا	شوفو الرزايا
والشعب قايم	على الملاية
نسيو الحماية	نسيوا الوصايه
ما فاهم	إيه الحكايه
والطاسة ضايعة	يا مصلحين!

موقف حضاري جذري، ووعي والتزام قلَّما تسنى لمثقف، عهد ذاك، أن يستوعبَها في فكرة بسيطة ويُقَدِّمُها أغنية ساخرة للناس. أحبَّ الناس أغنية الزعني، وانتشرت بينهم، حتى أننا ما زلنا لليوم نسمع أصداء اللحن الذي استخدمه عمر في موشح في مدح الرسول من على مآذن بيروت!

وتمضي الأيام، يكاد الانتداب الفرنسي أن ينتصر، ينشغل كثير من الناس في بلادنا بعقدة تفوّق الأجنبي، وبالرغبة المميتة في تقليده اجتماعياً والنسج على منواله. وهنا أيضاً يقف عمر بالمرصاد. يقف محللاً واقعياً جريئاً منطلقاً من أقرب المفاهيم إلى ذهن الناس؛ هؤلاء الذين غرّرت بهم مظاهر بَرَّاقةٌ للعيش حسبوا أنها الفلاح المشتهى للوطن، فإذا بها في أساس التمويه على فشل الحياة الاقتصادية والإدارية والسياسية. يأتي عمر في دعوته هذه المرة من صرخة ألفها أهل بيروت عهد ذاك. صرخة متسول كسيح جعل من مداخل مدافن الباشورة مقراً له يستجدي منه الناس ويقول بلكنة عربية تركية:

«إيــدو ما في، إجــرو ما في،
قــوة ما في، فقــرا، مساكين».

ويصبح الناس كلهم عند الزعني هذا التاعس المستقر عند مدخل الجبانة يبحث عن الحياة. وتأتي الصفعة ملعلعة، تلفح كل الوجوه والجباه والرقاب، يطلقها عمر الزعني لا لتذهب هباءً، بل لتستقر في ذهن الناس وتُمْسي أغنية مفضلة ولحناً محبباً، ونداءً قريباً من الذهن، ولا يبقى إلاّ أن يُحْسِن الناس الإصغاء والقراءة والفهم والانطلاق من نصّ عمر:

الفجــر لاح، الله أكبر،
والنــاس صحيــت، وإحنــا بنسكر،
لــكن منــرشّ عالمــوت سكر،
كل الأمــراض عمّــال تفشي،
والشعــب ما عاد يلقــى دفشة،
بنهدِّيــه حتــى يقــوم يمشي،
إيــدو ما في، إجــرو ما في،
قــوة ما في، فقــرا مساكين.

أراضي واسعــة وجبــال عالية،
وكل طحينــا من أوستراليا،
البستــان بتطيــب أغراسه،
لــو يسلــم من إيــد حرّاسه،
النواطيــر حارقين أنفاسه،
غلــه ما في، بصلــه ما في،
فجلــة ما في، فقــرا مساكين!

كان هذا حوالي سنة ١٩٣٨، والرائع في عمر أنه يبدو وكأنه لم يلتزم ناس ذلك الزمن وقضاياهم وحسب، بل التزم الزمان برمته وقضايا ناسه أبداً. فإلى أي مدى يا ترى تبتعد صرخته تلك عن عويل القوم في هذه الأيام؟ وهكذا برؤيا فذة تخترق الواقع، وببساطة تتحدى العبقرية، يصرخ عمر الزعني في أيام الجوع والفقر في كل عصر:

طــاسه بارده طاسه سخنة
ساعــة حرب ساعــة هدنه
منتألــم يوم منتنعّــم يوم
يــوم بجهنم يوم بالجنه
لأصغــر خبر وأدنــى إشاعه
كل العملة كل البضاعه
بتعلــى بتوطى بساعــة سمّاعة
بعلمــك عشنا بعلمــك متنا

أمّا الجماهير، فإن الزعني لم يتركها دون أن يوجه أضواءه الكاشفة على تصرفاتها، ودون أن يسعى إلى الصدق التام في التعامل معها؛ والصديق من صدق لا من صدَّق كما تقول هذه الجماهير. والزعني، صديق الناس، كان من أبرز رواد الدعوة إلى نبذ التعصب الطائفي والمذهبي حين يقول:

إن قلــت أبــوه ولاّ لأ
مالنــاش غنــى عن بعضنا
دينــك إلك ودينــي إلي
أمّــا الوطــن من دمنا!

الكلام عن عمر الزعني، ما زال طفلاً، فنتاج الرجل لم يلق حتى الآن ما يستحقه فعلاً من الدراسة والبحث في هذه التجربة الفذة والجريئة، والأمل أن لا يُختم الحديث عن عمر الزعني، بل إن في النفس أن يكون كلام اليوم بداية. إن هذا النوع من التفاعل مع الحدث الآتي، لم يؤمن لعمر الزعني أن يكون من خلال إنتاجه الأدبي خير مؤرخ للأحداث السياسية في لبنان خلال المرحلة التي عاشرها وحسب، بل لعل هذا التفاعل هو ما يجعل من الزعني شاعراً إنسانياً عظيماً يستغرق الزمن، شاعراً قادراً على الامتداد، عبر معاناته وتعبيره الأدبي، إلى ما بعد عصره وزمنه. وأظن أن كثيراً ممن عرفوا أشعار عمر وأغانيه، ما برحوا يستدعونها من ذاكرتهم مع أحداث كثيرة نعاصرها اليوم ونعيش معها وبها.